برنارد شو

بمناسبة بلوغه السابعة والثمانين

في السادس والعشرين من يوليو يبلغ برنارد شو عامه السابع والثمانين

وقليل من العظماء الذين يتاح لهم أن يعيشوا ليروا أسماءهم ترتفع إلى ذروة الشهرة، وبرنارد شو هو أحد هؤلاء الذين قدر لهم أن يلمسوا شهرتهم العالمية بأنفسهم، فلم تلق مؤلفات كاتب منذ شكسبير إلى الآن ما لقيته مؤلفات شو من الرواج والذيوع. فمؤلفاته تطبع منها الملايين وتمثل على أعظم المسارح وتعرض على الشاشة البيضاء في جميع أنحاء العالم

ويعتبر شو أكبر كاتب وناقد اجتماعي وسياسي ودبني. ويمتاز بنظرته النافذة وأسلوبه التهكمي اللاذع وقدرته على مهاجمة النظم القائمة في إقدام وجرأة

ولد جورج برنارد شو في دبلن في إيرلندا في السادس والعشرين من يوليو عام ١٨٥٦. وكان والده سكيراً لم يصادف في عمله حظاً ولا توفيقاً

ولما كان شو الصغير في الحادية عشرة أرسله والده إلى مدرسة ابتدائية في دبلن، فلم يظهر هو الآخر نبوغاً ولا تفوقاً، بل كان كما قال أرشيبلد هندرسون مصدر قلق ومتاعب لمدرسيه وشغلاً لزملائه عن الدرس، إذ كانوا يفضلون الانقطاع لسماع ما يروبه لهم من القصص على الانتباه إلى مدرسيهم

وكانت أمه - التي أخذ عنها ابنها الشيء الكثير - ذات خلق كريم وثقافة عالية، تهوى الموسيقى، وكان بيتها مزاراً لكبار الموسيقيين في ذلك العصر وعلى رأسهم «جورج چون ڤاندليرلي» وكانت نشأة شو في هذا الوسط سبباً في اكتسابه كثيراً من المعلومات في هذا الفن وهيأت له جواً من الجمال والخيال

ولما بلغ شو العشرين من عمره رحل إلى لندن حيث قضى الأعوام الستة التالية في عوز وفاقة، وأوشك أن يغلب عليه اليأس، وكاد أمله في الكتابة يتحطم إذ لم يربح من إنتاجه الأدبي طوال هذه المدة سوى جنيهات معدودة

ولما كان في السادسة والعشرين استمع إلى محاضرة ألقاها الاقتصادي الكبير هنري جورج عن الملكية الزراعية بين فيها رأيه في مشاكل العالم الاجتماعية وقال إن الحل الوحيد لهذه المشاكل ينحصر في جعل الأرض ملكاً مشاعاً للجميع، بينما تبقى رؤوس الأموال الأخرى في يد الأفراد. فراقت شو هذه الآراء وقرر اعتناقها، ولكن ذلك لم يدم طويلاً بل تغير حين قرأ شو كتاب كارل ماركس عن الاشتراكية والرأسمالية وقد تأثر شو بهذه الآراء إلى حد جعله يقول إن كتاب كارل ماركس هو الزي الذي خلق مني رجلاً

وما حل عام ١٨٩٤ حتى كانت شهرة شو قد ذاعت، فقد أضحى بعد هذا التاريخ كاتباً قصصياً يطلع برواياته على الجمهور مصدّرة بمقدمات تتضمن آراءه في المسائل السياسية والاجتماعية. وإذا كانت هذه المقدمات لا تتصل في الغالب بموضوع الرواية التي تتصدرها فإنها كانت لا تقل عنها قيمة إن لم تفقها

وفي عام ١٨٩٨ وهو في الثانية والأربعين من عمره، أصيب بجرح بليغ في قدمه. وقد سهرت عليه أثناء مرضه سيدة إيرلندية، وهيأت له جواً هادئاً مريحاً، واختصته بالجانب الأكبر من عنايتها واهتمامها. وكانت هذه الراحة والعناية سبباً في أن يطلق شو مهنته السابقة كصحفي ويتفرغ للكتابة. ومنذ ذلك التاريخ كسب شهرته كأكبر ناقد اجتماعي وسياسي ودبني، وكأعظم كاتب قصصي

ولنعرض الآن لبعض آرائه

لم يرق شو رؤية الكثيرين يعانون متاعب الفقر في عالم غني

وأعتقد أن حالة الأعصاب هذه كانت وما تزال حائلاً دون انتشار القصة والرواية في أدب العرب، وباعثاً إلى وضع تلك القواعد الأدبية التي تقول باختيار ما قل ودل، وأن الإعجاز في الإيجاز

فإذا اتفقت كلمة الباحثين على أن الشعر المهموس وليد طبيعة خاصة تفعل في نفس الشاعر، لا يبقى محل للنعي على الشعر في مصر، أو للقول بأن الهمس فيه فن من الفنون

إن الهمس أو الجهر في الشعر أو في غير الشعر، لا يمكن اعتباره مظهر تطور أو تأخر، لأنه لا يدل إلا على مقدار الطاقة التي يذلها صاحب الفن في سبيل التأثير في الآخرين

(بغداد) مصيب الظريفي المحامي

بموارده وثرواته ، وحاول أن يجد لهذه المشكلة علاجاً فرأى في الاشتراكية هذا العلاج

ويقول عنه الأستاذ چود أحد أعضاء جامعة لندن في هذا الصدد : « لقد كان برنارد شو في عام ١٩١٤ القائد الذي قادنا تحت لوائه إلى عهد الاشتراكية المنتظر ، كما كان اللسان الناطق بآمال من يعتنقون هذه المبادئ »

ولما بدأت الحرب الحالية أخرج شو مؤلفه « الشعور نحو الحرب » الذي حاول فيه أن يفسر الحرب تفسيراً على ضوء الاشتراكية ، ويرى أن رؤوس الأموال مكدسة في أيدي الرأسماليين الذين يستغلون بها العمال ويستعبدونهم ، فيجب أن توضع تحت رقابة الشعب .

وفي عام ١٩٢١ زار شو روسيا السوفيتية وقابل ستالين ، فلما عاد إلى انجلترا أخذ يشيد بهذا الرجل وبرجال حكومته ويقول إنهم قد وفقوا لحل المشاكل التي واجهتهم

هذا طرف من آرائه السياسية . أما آراؤه الاجتماعية فتتلخص في أن ما يواجه العالم من مشاكل يرجع في الأصل إلى نظام الرأسمالية الذي يجعل الكثرة الغالبة في قبضة أفراد قلائل يتحكمون في مصيرهم . وهو لا يلقي المسؤولية على عاتق الرأسماليين وحدهم ، بل يشرك معهم العمال الذين يضعفهم انشقاقهم وافتراق كلمتهم . ولعل رواية « فوق الصخور » خير معبر عن آرائه في هذه الناحية

وفي رواية « مهنة مسز وارن » يحاول أن يصل إلى أن وزر الدعارة وحياة الرذيلة إنما يلحق هؤلاء الذين كانوا سبباً في الفاقة التي تدفع المعدمين إلى مثل هذه الحياة ، لأنهم إنما يعملون ذلك مدفوعين إليها ومرغمين عليها لكسب قوتهم . ويردد شو دائماً أن « لا جريمة إلا الفقر »

وتحمل كتابات شو كثيراً من المتناقضات ، فتراه يعترض على الغنى الذي يقع على العمال ، ولكنه في الوقت نفسه يقر هذا الغنى إن كان لمصالح الإمبراطورية البريطانية . وتراه في قضية إرلندا يقف إلى جانب بريطانيا مع أنه إرلندي النشأة ومع اعتزازه بها . وبينما يتهم شو الإنجليز ويعيب عليهم عسفهم في مذبحة دنشواي ، تراه يعضدهم ويؤازرهم في اضطهادهم للبوير أثناء حرب جنوب إفريقيا

وبرنارد شو مقتنع بأن الكثيرين يخالفون مذاهبه وآراءه ويقفون دونها ؛ وفي هذا يقول في إحدى مقدماته : « إذا نطقت بكلمات تافهة تحت تأثير فكرة أو عاطفة سرت في صحف العالم سريان البرق ؛ أما إذا قلت خلاف ما يريد الرأسماليون كان صدى قولي صمتاً وسكوناً » .

محمد شاهين الفوهي
بكالوريوس في الصحافة